الصراع اللغوي

بحث مقدم لمؤتمر علم اللغة الثالث :

(التعليم باللغات الأجنبية في العالم العربي)

١٦ – ١٧ / ١ / ١٤٢٧هـ

قسم علم اللغة والدراسات السامية والشرقية – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

إعداد / د. إبراهيم بن علي الدبيان
وكيل الكلية لشؤون الطلاب
كلية المعلمين في الرياض

جوال / ٠٠٩٦٦٥٠٦٢٧٣٥١٥
ناسوخ ٠٠٩٦٦١٤٩٣٨١٠٨ تحويلة ١١٩
البريد الإلكتروني : **Ebr1386@yahoo.com**

الصراع اللغوي

ملخص البحث :

يعدّ تقلص الحدود المكانية والزمانية الذي أحدثه التطور العلمي الحديث في شتى المجالات المختلفة من أبرز العوامل التي ساعدت على سرعة الاحتكاك بين الشعوب والأمم في جميع مجالات الحياة . ولا شك في أن اللغة هي الوسيلة التي تتم من خلالها عملية التفاهم والاتصال الفردية والجماعية ، من هنا زادت حدّة (الصراع اللغوي) بين لغة مؤثرة تملك مقومات القوة وأخرى متأثرة تفتقد كثيرًا من عناصر القوة .

واللغة العربية هي إحدى اللغات الحيّة التي تعيش صراعًا لغويًّا مع عدة لغات ، ساعدت على وجوده عوامل كثيرة ؛ خارجية فرضها الواقع المعاصر الذي تعيشه ، وأخرى داخلية من صنع أهلها ، يقومون بتغذيتها – شعروا أو لم يشعروا- من خلال وسائل متعددة ، مثل موضوع هذه الندوة .

مما سبق تبرز أهمية مثل هذا البحث الذي يهدف إلى إظهار أثر التعليم باللغات الأجنبية على العربية وأهلها . ولتحقيق هذا الهدف فإن البحث يسعى إلى الإجابة عن السؤالين الآتيين :

١ـــ ما عوامل الصراع اللغوي الخارجية والداخلية ؟

٢ـــ ما آثار التعليم باللغات الأجنبية على العربية والهوية العربية ؟

ولكي يخرج البحث بالإجابة عن السؤالين السابقين ؛ فإنه تناول الصراع اللغوي تاريخيًّا من خلال لمحة سريعة لبعض مظاهره القديمة والحديثة ، بعد ذلك تطرق إلى عوامله بشقيها ؛ فأشار إلى الخارجية ، مثل : (دينية ، العسكرية ، الاقتصادية ، السياسية ، العلمية ، الاجتماعية ، العولمة ...) ، ووقف عند الداخلية التي هي من فعل أبنائها ، مثل : (التعليم – تعليم اللغة الأجنبية و التعليم باللغات الأجنبية – سوق العمل ، الإعلام ...) . ثم انتقل إلى محاولة التعرف على أبرز آثار التعليم باللغات الأجنبية ، مثل : (الصراع اللغوي ، ضعف الاعتزاز ، تلاشي الهوية ، هجرة العقول) . وأخيرًا تمّ رصد بعض النتائج التي توصل إليها ، والتوصيات التي من شأنها محاولة التقليل من حدة الآثار السريعة للصراع اللغوي عامة وتعليم العلوم باللغات الأجنبية خاصة.

وختامًا أدعو الله سبحانه وتعالى أن ينفع بهذا البحث المتواضع ، وأن يكون لبنة في خدمة لغة القرآن الكريم ، والحفاظ على هوية أهلها من آثار الصراع اللغوي .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

د. إبراهيم بن علي الدبيان

المحتويات

- مقدمة .
- عوامل الصراع اللغوي :

١) العوامل الخارجية (الدينية، العسكرية ، الاقتصادية ، السياسية ، العلمية ، الاجتماعية ، العولمة...) .

٢) العوامل الداخلية : التعليم (تعليم اللغة الأجنبية ، التعليم باللغات الأجنبية) ، سوق العمل ، الإعلام .

- آثار التعليم باللغات الأجنبية :

١- الصراع اللغوي .

٢- ضعف الاعتزاز بالعربية .

٣- تلاشي الهوية .

٤- هجرة العقول .

– الخاتمة :

*النتائج .

*التوصيات .

– الهوامش .

مقدمة

إن من أهم وظائف اللغة هي : عملية الاتصال مع أفراد المجتمع ، ولابد لأي مجتمع بشري من لغة يسلكها حتى تسير الحياة طبعية ؛ صوتية أو غير صوتية كالرموز والإشارات وغيرها ، هذا مفهوم اللغة بشكل عام . ولكن ما يهمنا في هذا الصدد هو اللغة التي تقوم على الأصوات اللغوية الإنسانية .

وبنظرة تاريخية سريعة نلاحظ أن اللغات على مر العصور لم تكن على وتيرة واحدة بل يعتريها ما يعتريها من تغير وتطور وبقاء واندثار لها أو لبعضها ، وهذه سنة الحياة المتلازمة مع طبيعة البشر .

ولذلك عوامل كثيرة منها (الصراع اللغوي) الذي له حالات يمكن الإشارة إليها بشكل سريع ، وهي :

١- صراع بين لغة وأخرى أجنبية .

٢- صراع بين لغة وأخرى داخل لغة واحدة (لهجات).

٣- صراع بين لغة مثالية وأخرى عامية في داخل لغة واحدة .

والتاريخ القديم والحديث يشيران إلى شيء من ذلك .

فمن الحالة الأولى : تغلب لغة على أخرى سواء أكانت من فصيلة واحدة أم من فصيلتين مختلفتين ؟

فمن النوع الأول تغلب لغة العرب على كثير من اللغات السامية الأخرى . ومن النوع الثاني انهزام لغة البلغاريين أمام لغة شعوب الصقالبة . وقد لا تتغلب إحداهما على الأخرى وإنما يحدث تأثر وتأثير بينهما ؛ كما حصل للعربية مع اللغة الفارسية والإسبانية والأوردية ...(١) .

ومن الحالة الثانية ما حدث في اللغة العربية نفسها من صراع بين عدة لهجات عربية متفرقة كانت الغلبة في النهاية للغة قريش لعوامل كثيرة (دينية وسياسية ...) (٢).

وأما ما يتعلق بالحالة الثالثة فنجده ماثلا في واقع اللغة العربية كما في العصر الحديث ؛ حيث إن اللغة الفصحى مقصورة في جوانب معينة من الاستخدام اللغوي ، بينما العامية لها ظهورها وحضورها في أماكن ومواقع حيوية ؛ كانتشارها على ألسنة العامة ، وفي الإعلام بمجالاته المختلفة ؛ مما يدل على أن تمثّل الفصحى يحدث صراعًا واضحًا مع العامية التي سيطرت على واقع المجتمعات العربية .

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ بل إن الفصحى تواجه مواقف نفسية من متكلميها باتّهامها بالصعوبة وعدم صلاحيتها للواقع ، ولا أدلّ على ذلك من تلك الحشود الكبيرة التي تصطفّ عند الأمسيات

الشعرية الشعبية والتي تتابع كذلك المجلات التي تعنى بالشعر الشعبي ، بينما في المقابل لا نجد ذلك في الأمسيات التي تُحيا بالفصحى ؛ مما يدل على أن الذوق الفني والإبداع اللغوي الراقي يشهد احتضارًا ملموسًا ؛ إذ لو ارتقت الأذواق لوجدنا الشعر في الفصحى له رواده ومرتادوه ، كما يشهد التاريخ بذلك في سالف الأيام .

إن الحالات السابقة الثلاث نلمس منها في واقعنا المعاصر الأولى والثالثة ؛ ففي الحالة الأولى نجد أن اللغة العربية تواجه صراعا لغويًّا في الأقطار العربية مع عدة لغات أجنبية ؛ كما يحصل لها في المغرب العربي مع اللغة الفرنسية ، وفي دول الخليج العربي مع اللغة الإنجليزية ، وأما الحالة الثانية فيمكن تعميمها وبدون استثناء على جميع الدول العربية التي يحدث فيها صراع لغوي بين العامية والفصحى .

عوامل الصراع اللغوي :

إن أي صراع لغوي له عوامل مختلفة من حيث النوع والكيف ، وهي تختلف من عصر لآخر ، وكذلك تأثيرها قد يكون سريعًا أو بطيئًا حسب ظروف ذلك العصر .

ومن الممكن تصنيف العوامل إلى خارجية وداخلية ، حسب اللغة المؤثّرة والمتأثّرة كاللغة العربية – مثلاً– في هذا العصر .

العوامل الخارجيّة :

العوامل الخارجيّة تكون أحيانًا شبه مفروضة على اللغة المتأثرة كعامل القوة وما يتعلق به من قوة دينية وعسكرية واقتصادية وسياسية ، وهذه العوامل واضحة قد قيل فيها ما يكفي فما أراني إلا أقول مكرورًا (٣).

ولكن هناك عاملاً ظهر بصورة بارزة في هذا العصر الحديث ، وهو (القوة العلمية) التي تمتلكها بعض الدول الأجنبية الغربية والشرقية، فأصبحت مصدّرة للغتها عن طريق تقدمها العلمي .

وهذا العامل له أثره الواضح في التأثير في اللغة العربية من عدة جوانب ؛ إذ فرض أسماءه ومصطلحاته ، التي تسربت إلى اللغة العربية ، وأصبح المصطلح الأجنبي من كثرة استعماله لدى متكلمي العربية أيسر من المصطلح العربي الذي يعاني من بطء في نشره بين المجتمعات العربية حتى إذا سارت الركبان بالأجنبي جاء المصطلح العربي المقابل له متأخرًا ، فلا يجد من يتبناه إلا القلة التي لا تمتلك عناصر التأثير في المجتمع ، وإنما تستخدمه في نطاق ضيق ، بل يضطر أحيانًا إلى استخدام العربي ويجاوره الأجنبي بين قوسين ؛ لأن المخاطب قد يجد صعوبة في معرفته بالعربي .

كما كان للتقدم العلمي أثره في فرض لغته ؛ حيث إن كل ما يتعلق بالمنتج من أجزاء ومكونات وطرق استخدام بلغة صاحبه ، مما أعطى أهمية لدى المستفيد لتعلم تلك اللغة ، وبالذات مع تأخر الترجمة والتعريب ، من هنا كثرت معاهد تعليم اللغات الأجنبية .

ونتج عمّا سبق تلك النظرة الدونية للعربية من قبل متكلميها والتقليل من شأنها ، وأنها لم تستطع أن تجاري وترقى إلى مصافّ تلك اللغات التي حوت علومًا علمية كثيرة ؛ مما يحدو بكثيرين إلى الافتخار باستخدام الكلمات الأجنبية ضمن حديثهم اليومي ، وليس ذلك ضمن لغة علمية متخصصة ، وإنما ضمن لغة سوقية شعبية .

وينبغي ألا نقصر القوة العلمية على الجانبين الصناعي والتقني ؛ إذ يشمل الجانب العلمي التأليفي ، كالتقدم في مناهج البحث والنظريات الحديثة في مختلف العلوم التي كان لها الأثر في العقلية العربية ، والإفادة ليست عيبًا ، وإنما الذي نراه أن ألسنة كثير من هؤلاء الباحثين العرب تتكلم بتلك اللغة في الإعلام والندوات والمؤتمرات والمقابلات بل حتى في مجال العمل التخصصي ، ووصل الأمر إلى أن تعقد ندوات عربية وفي أوطان عربية عن أثر اللغات الأجنبية ، وتطرح بحوث باللغات الأجنبية لباحثين عرب ، أليس هذا تناقضًا يحتاج إلى إعادة نظر ؟!

مما سبق ينبغي التأكيد على أثر هذا التقدم العلمي بجانبيه العلمي والعملي في الصراع اللغوي وأثره الظاهر في المؤلفات العربية (البحوث والمجلات والكتب) .

وهذا لا يعني الوقوف أمام اللغات الأجنبية موقف المعارض والمتحدي ، ولكن لا بد من التعامل معها بتوازن غير مخلّ ، بحيث تكون الإفادة أمرًا يتيح التطور والتطوير ، وذلك عن طريق وجود مراكز وهيئات وأشخاص لهم اهتمام بالتعامل مع اللغة الأجنبية ؛ بهدف نقل علمهم ومعارفهم وجوانب تطورهم التي يمكن أن تتبنى .

وأخيرًا برز تيار العولمة بجميع أجنحته المختلفة (السياسية ، والاقتصادية ، والثقافية ...) الذي ساعد على سرعة فرض الاحتكاك بشتى صوره من خلال وسائله المتعدّدة القائمة على التقنية الحديثة ؛ لذا يعدّ من العوامل التي تشكل خطورة كبيرة في قضية التأثّر والتأثير بين شعوب هذا العصر ؛ لأنه يحمل في طياته العوامل الخارجية التي تختصر المسافات الزمانية والمكانية .

ومن المعلوم أن اللغة – في الغالب – هي بوابة ذلك ؛ مما ينذر بخطر كبير على الأمة العربية وخصوصيتها في ظل الهيمنة الأجنبية ؛ وهذا يوجب التفكير الجادّ في السعي إلى إيجاد الحلول التي تحافظ على اللغة العربية وهوية أبنائها ، ووضع إستراتيجيات للتعامل مع اللغة الأجنبية ؛ لأن الأمر لا يقف عند

حدّ تعلّمها أو التعليم بها ، وإنما يتجاوزه إلى المحتوى الثقافي والاجتماعي الذي تحمله تلك اللغة الأجنبية في طياتها وجنباتها .

العوامل الداخلية :

أما عن العوامل الداخلية للصراع اللغوي فإنها تمثّل في هذا البحث بيت القصيد ؛ لأنها أشد تأثيرًا فيه من عدة جوانب ، وتتمثل فيما يأتي :

١– التعليم (تعليم اللغة الأجنبية – التعليم باللغات الأجنبية) :

إن هذا العامل يمكن تناوله من جانبين :

أ– تعليم اللغة الأجنبية :

إن الحاجة في هذا العصر تستدعي وتتطلب تعليم بعض اللغات الأجنبية ؛ لتحقيق بعض الأغراض والأهداف التي لا يمكن تأتّيها إلا من خلال الأجنبية ، ولكن أمر تعليمها يحتاج إلى تقنين زماني وكيفي وكمّي ؛ بحيث لا تكون سببًا في التأثير في اللغة العربية ، فيصبح تعلمها عاملاً من عوامل الصراع اللغوي الداخلي .

وبإلقاء نظرة سريعة في واقعنا العربي سنجد أن تعلم اللغة الأجنبية أحدث صراعًا واضحًا مع اللغة العربية ؛ كتعليمها – مثلاً – في المرحلة الابتدائية الذي كان على حساب مقررات اللغة العربية ؛ مما أحدث عزوفًا لدى أفراد الجيل عن اللغة العربية ، بل واتخاذ مواقف سلبية تجاهها ، تمثّل في تضخيم حاجز الصعوبة فيها الذي بدوره أحدث عاملاً نفسيًّا كان وراء ضعفهم في العربية .

فبمجرد إلقاء نظرة في نتائجهم ، أو الاحتكاك بهم نلمس بأن اللغة العربية من أكثر المقررات صعوبة ، حتى أصبح إتقان مهاراتها عائقًا أمام نجاحهم ؛ مما جعل كثيرين يتمنون – فقط – النجاح فيها ، ناهيك عن التطلع إلى الحصول على أعلى الدرجات .

وأعتقد بأن وضع اللغة الأجنبية في الصفوف الأوليّة خطوة من خطوات الأعداء إضافة إلى نشر العاميّات وتقعيدها ، ووضع الإعراب في أعلى هرم صعوبة العربية الذي دندن حوله كثير من الذين حملوا رسائل غربية شعروا أو لم يشعروا .

من هنا نستطيع القول بأن إقرار الأجنبية في المرحلة الابتدائية سيؤصل مبدأ الصراع الذي يخشاه جميع الغيورين ، الأمر الذي يتطلب معه إعادة النظر في هذه القضية .

وينبغي أن نقف عند المُخْرَج الذي تحصلنا عليه من تعليم اللغة الإنجليزية – مثلاً – في بعض البلدان العربية التي تُعَلَّم فيها اللغة الإنجليزية في المراحل التعليمية المختلفة ؛ حتى نضع أيدينا على الخلل الذي

نعاني منه ؛ لنجد أنه على الرغم من مزاحمتها للعربية إلا أننا لم نخرج بنتيجة مرتضاة من تعلمها سوى أنها أصبحت أحد عوامل الصراع اللغوي ، وهذه هي المشكلة الأساس التي ينبغي أن نوجد لها حلاً عاجلاً ، يتمثل في تقليل سنوات تدريسها لتكون في المرحلة الإعدادية وما بعدها ، وعلى معدي المقررات في بعض البلدان العربية إعادة النظر في طريقة تعليمها فتستبدل الطرق الحديثة بالطرق القديمة (النحو والترجمة) . ومما يؤكد هذا أن المعاهد والمراكز الخاصة التي تعلم فيها بعض اللغات الأجنبية وفق الأساليب والطرائق الحديثة تحقّق تقدّمًا ملحوظًا في تعليمها في وقت قياسي ؛ لأنها تعنى بالجانب الكيفي لا الكمي .

وبالتالي ظهر للجميع أننا خلقنا صراعًا لغويًّا أثّر سلبًا في تعلم العربية من خلال تعليم بعض اللغات الأجنبية في أغلب المراحل التعليمية ؛ فإذا كان أهل اللغة هم الذين يتبنون اللغة الأجنبية ويدعون إليها ، وييسرون تعليمها وتعلمها مستخدمين أحدث المعامل والأجهزة الحديثة والمناهج والطرق – وبالذات في المعاهد والمراكز الخاصة – ما لم يستخدم في تعليم لغتهم الأصلية العربية ؛ فإننا نجزم أن هذا الواقع سيكون له أثر في نفسيات أبناء المجتمعات العربية كالتقليل من شأن اللغة العربية ، والبحث عن الأجنبية ؛ لأنها تحقق أهدافًا ماديّة سريعة .

ب_ التعليم باللغات الأجنبية :

في ظل ذوبان الفروق والمسافات المكانية والزمانية التي أسهمت فيها جوانب الاتصالات الحديثة ؛ أصبحت الإفادة من الأمم والشعوب الأخرى سانحة وبصورة يسيرة ، ولا شك في أن الحياة الحديثة المتطورة التي كان من جوانبها التطور العلمي والتقني الذي وصل إليه الغرب في ميادين شتى ؛ أدت إلى إفادة الأمم قاطبة والعربية خاصة من علومها ؛ مما تتطلب نقلها إلى المؤسسات التعليمية ، وأصبح إرسال البعثات على قدم وساق ؛ حتى تكونت لدينا عقليات عربية أفادت من تلك العلوم ونقلتها إلينا ، وأصبحت جزءًا من مقررات العلوم في المؤسسات التعليمية .

من هنا برزت إشكالية جديدة تتمثل في السؤال الآتي :

هل يتم تعليم العلوم باللغة الأجنبية أم باللغة العربية عن طريق الترجمة والتعريب ؟

ويمكن الإجابة عنه من خلال الإجابة عن السؤال الآتي :

هل العلوم – فعلاً – لا يمكن أن تعلّم إلا عن طريق لغتها الأصلية ؟

إن مشاهدات الواقع الملموس ونتائج التجارب والدراسات السابقة قد حسمت هذه القضية .

فمن الواقع ما نشاهده في بعض " دول العالم التي تدرس الطب بلغتها : اليابان ، والصين ، وروسيا ، وكوبا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وفي العالم العربي : هناك سوريا ، وحديثًا السودان ، والجزائر ، وكلها

تجارب ناجحة جدًّا ؛ فهل الطب الألماني أو الصيني متخلف عن الطب الإنجليزي ؟ وهل الطب العربي السوري الذي يدرس باللغة العربية متخلف عن الطب العربي المصري أو الليبي الذي يستخدم اللغة الإنجليزية في التدريس ؟ نحن لا نعتقد ذلك أبدًا " (٤).

إن تجربة سوريا في تعليم الطب بالعربية ، وما حققته من نجاحات متتالية ؛ أثبتت قدرة العربية على مسايرة التقدم الحديث في المجال الطبي ، وإمكانية ذلك . وهذه الإشادة لا تنسينا دور مصر الريادي في هذا المجال ؛ إذ لها فضل السبق في افتتاح أول مدرسة للطب الحديث التي أسسها محمد علي ، وبدأ التدريس فيها عام ١٨٢٧م باللغة العربية (٥) .

وكذلك دراسة د. زهير سباعي التي أجراها عن سرعة القراءة ومدى الاستيعاب على عينة من (١٢٤) طالب طب ، وطبيب امتياز ، وطبيب مقيم في كلية الطب بجامعة الملك فيصل ، وكان من نتائجها استطاعة كل من طالب الطب والطبيب " قراءة النص الطبي باللغة العربية بسرعة تفوق سرعته في قراءة النص باللغة الإنجليزية بحوالي (٤٣%) ، كما أن قدرته على استيعاب النص باللغة العربية أفضل (١٥%) من استيعابه للنص باللغة الإنجليزية " (٦).

وأشار إلى أن هناك دراستين أجريتا في الجامعة الأمريكية ببيروت والجامعة الأردنية بين مجموعتين من الطلاب درستا مقرّرًا طبيًّا ؛ واحدة درسته باللغة العربية ، والأخرى بالإنجليزية ، اتضح أن المجموعة الأولى أفضل في درجة الاستيعاب من الثانية (٧) .

كما أن هناك دراسة حديثة تمّ فيها تحليل محتوى مادة القراءة الطبية باللغة الإنجليزية لطلاب السنة الأولى في الفصل الأول في كلية الطب البشري بجامعة الملك سعود في القصيم ، اتضح أن الطلاب غير قادرين تمامًا على البحث عن المعلومات والمعارف بهذه اللغة وبهذا القدر من التعليم اللغوي ، واقترح الباحثان حلّين : الأول : تكثيف دورة اللغة الإنجليزية وتمديد مدتها إلى سنة أو سنة ونصف ، والآخر : تعريب التعليم الطبي وتدريسه باللغة العربية ، وتعلم اللغة الإنجليزية بوصفها مادة مستقلة ؛ ليتمكن طالب الطب والعلم من متابعة معارفه ، ويرى الباحثان بأن هذا هو الحلّ الأمثل والأنسب (٨) .

وكذلك يقال عن إمكانية تعليم العلوم باللغة الأم في المجالات العلمية الأخرى ؛ كالتقدم في المجال التقني الذي تشهده الصين وكوريا وماليزيا وغيرها ؛ فهل رأيناها استغنت عن لغتها ، وانكبّت على اللغة الأجنبية وجعلتها لغة تعليم ؟ بالطبع لا ، إذًا فالعربية عندما نطلب أن تنحو نحوها فهي ليست بدعًا في هذا ، فالأمم الأخرى تعلم العلوم بلغتها الأصلية ، ولم يعقها ذلك عن التقدم العلمي ، فهذه الولايات المتحدة الأمريكية نراها عندما أطلقت روسيا أول صاروخ فضائي عام ١٩٥٧م ، لم تحول

التعليم فيها باللغة الروسية ، وإنما شعرت بأهمية إعادة النظر في نظريات تعليم اللغات الأجنبية ؛ لكي لا تجد نفسها معزولة عن التقدم العلمي الذي يجري في الدول الأخرى (٩) ، وتمّ لها ما أرادت والواقع خير شاهد على ذلك .

والذي ينبغي ألا ننكره أن إصرارنا على التعليم بالأجنبية هو في المقابل اعتراف ضمني بعجز العربية عن مسايرة ذلك ، وعجزها عن تلبية احتياجات العلوم ، وهذا غير صحيح ؛ لأن العربية – كغيرها من اللغات – قادرة على ذلك ، كما أثبتت الدراسات والواقع ذلك .

وبرز الصراع الذي أحدثه هذا العامل لدى كثير من المتخصصين الذين يكتبون ويتعلمون بالأجنبية ، بالإضافة إلى حواراتهم الخاصة التي لا تخلو من غلبة الأجنبية ، ولاشك في أننا نعترف بصنعنا لهذا العامل وتعميقه ، بحيث لا نجد – في كثير من الأحيان – من يدافع عن العربية عندما تتهم بالصعوبة والتخلف ، بل ربما تبنى بعضهم هذا .

وإذا كان لما سبق خطورته على الرغم من أنه محصور في تعليم العلوم في المراحل الجامعية ؛ فإن تعليم العلوم باللغات الأجنبية في مراحل التعليم العام ولاسيما المراحل الأولية يعدّ أشد خطورة على اللغة العربية وهوية أهلها ؛ لأن المتعلم في السن المبكرة لم يتمكن بعد من لغته الأصلية ، واستخدام أنظمتها المختلفة (الصوتية ، الصرفية ، النحوية ، الدلالية) ؛ وبالتالي فإن تقديم أي لغة أجنبية سيسهم في عدم إتقان لغته الأم فضلاً عمّا يترتب عليها من عدم اعتزازه بلغته واستهجان ثقافتها .

٢- سوق العمل :

إن النهضة الاقتصادية العالمية الحديثة ، وبروز عوامل الاحتكاك بين الشعوب بشكل سريع وواضح ، بفضل تقنية الاتصالات الحديثة ؛ كان لها الأثر في تغذية عامل الصراع عامة واللغوي خاصة . فنظرة في واقع الشركات والمؤسسات في العالم العربي نجد أن عليها إقبالاً منقطع النظير ؛ لأن سوق العمل أحد شرايين الحياة الذي لا غنى عنه .

وإذا أردنا أن نشخص واقع سوق العمل ، ونرسم عنه صورة حقيقية عن مدى علاقته بالصراع اللغوي ؛ فإنه يجب علينا أن ندرك تحمّله مسؤولية كبرى شاء أم أبى ؛ لأن التفكير المادي المجرد هو المسيطر والمهيمن على سوق العمل ؛ لتحقيق المصالح الخاصة حتى ولو على حساب مصالح الأمة التي إن أتت تكون على هامش الطريق الضيق جدًّا جدًّا .

وقد يستغرب كثير ممن يعملون في حقول سوق العمل هذه العلاقة ، ولكن دعونا نربط بينه وبين الصراع اللغوي من خلال تلك الشروط – مثلاً – التي يفرضونها بوصفها أساسًا للالتحاق بمجالاتهم ، ومن أبرزها – كم يظهر في الإعلانات الإعلامية – شرط إجادة اللغة الإنجليزية

أو إحدى اللغات الأجنبية ؛ مما وضع الراغبين في الالتحاق بالعمل يدعمون حركة تعليم اللغة حتى يتسنى لهم الحصول على وظيفة . وترتب عن ذلك أثر نفسي في نظرهم للعربية التي لم تخدمهم – على حدّ قولهم – في مجال التوظيف . وهذه تعدّ ظاهرة في فروع سوق العمل ، مثل : (المجال الصحي ، التجاري ، الاقتصادي ، الفني ...) .

ومن جانب آخر نحن الذين فرضنا الصراع على أنفسنا ؛ كما في لافتات المحلات التجارية التي تكتب بالأجنبية إضافة إلى العربية ، وهذا مظهر من مظاهر عدم الاعتزاز . ومن الأشياء العجيبة أنك عندما تذهب إلى قرية نائية بعيدة عن الأنظار وترفع رأسك إلى لافتة فوق محل صغير تجد بالإضافة إلى العربية الخاطئة الأجنبية الصحيحة .

وكذلك نظرة في المجال الصحي نجد أن وصفات العلاج لا تكتب إلا بالأجنبية (الإنجليزية) على الرغم من أن هناك قرارًا رسميًّا في بعض البلدان العربية مثل السعودية ؛ يؤكد على استخدام العربية رسميًّا . وقل ذلك في (الفنادق) واستعلامات الجهات الخاصة والعامة التي لاتتردّد في استخدام العربية والأجنبية .

فإذا كانت اللغة في نفوسنا محطّمة ؛ فإن الأجنبي ليس بحاجة إلى أن يقرأ بالعربية ، أو يبحث عن مترجم ، كما تصنع بعض دول العالم التي تعتز بلغتها في حياتها اليومية حتى في تعاملها التجاري ؛ مما يجعل الأجنبي عنها يفكر على الفور بمترجم وسيط بينهما ، وياليتنا نعيد النظر في نشر الأجنبية في كل مكان ؛ بحيث نجعل الأجنبي يضطر إلى البحث عن طرق للتعامل مع العربية ، لا أن نهيّأ السبل الكفيلة لأن يتعامل بلغته في أي قطر عربي .

إننا عندما نتكلم عن هذا لا يفهم أننا لا نعترف بجدوى الأجنبية ، ولكن ينبغي أن نعي واقعنا وأهمية لغتنا ، وأن نبحث عن حلول تفيد في عملية التقدم ؛ مع الإفادة من علوم الآخرين ، وهذا يتطلب أن يكون هناك تنظيم قوي يعنى بحفظ مكانة العربية ، ويؤدي إلى الإفادة من الآخرين سريعًا .

٣– الإعلام :

إنه مطلب ولا غنى – بمفهومه الواسع – لأيِّ مجتمع عنه ، ونحن في هذه العجالة لا نتوسع في أهميته وآثاره المتنوعة ، ولكن يكفينا في هذا الصدد أثره الواقع في اللغة العربية وأهلها وما يحدثه من صراع لغوي .

لا ريب في أن بعض الدول العربية التي تبث قنوات بلغات أجنبية ارتكبت خطأ يحتاج إلى إعادة النظر سريعًا لتصحيح المسار ؛ لأنها أسهمت في إحداث الصراع اللغوي من خلال العمل على نشر

اللغة الأجنبية ورفع مكانتها وإعلاء شأنها ، بالإضافة إلى التأثير في الهوية العربية اجتماعيًّا وثقافيًّا ... ؛ مما يغني عن الإطالة والتفصيل .

ولكن ما يهمّنا هو الإشارة إلى الأثر غير المباشر الذي أحدثه الإعلام العربي بصوره المختلفة ، المتمثل في أنه تبنى وأشاع لغات ولهجات عامية شعبية ، احتلت مكان الصدارة فيه ، ترتّب عنها إقصاء العربية في نفوس النشء والجيل عمومًا ، من خلال العامل النفسي والموقف السلبي الذي ضرب بأطنابه ، وقطن في صدورهم تجاه عربيتنا المظلومة .

ولذلك نجد ما يسمى بالأدب الشعبي أو اللهجات العاميّة تحتل مكان الصدارة والذيوع ، فهو في طيه يحمل رسالة ضد العربية الفصحى ، بل إن تلك الكتب التي تحدث صراعًا بين الجيل والتراث يكون لها صيت في الصفحات الإعلامية ، وتحتل مكانة مرموقة فيه ، وتتبناها دور النشر ؛ لأنها تفكر في الشهرة الخاصة على حساب واقع أمة ، ولو حطمت آمال الاعتزاز بعربيتها .

وقل ذلك في المجلات الشعبية الكثيرة التي انتشرت ووجدت قابلية في مقابل تلك المجلات القليلة التي تكتب بلغة عربية سليمة ؛ مما يدل على انحطاط الذوق الفني لدى كثير من القراء ؛ لأن الفصحى لو عرفنا قدرها حق المعرفة لما ترددنا في نشرها وتعقبها ؛ لأنها – وبدون مبالغة – من أغنى اللغات العالمية بالذوق ؛ لتميزها بخصائص تكسبها ذلك قد لا توجد كلها في بعض اللغات الأجنبية .

وينبغي ألا نغفل وننسى ما أحدثه هذا الإعلام من ازدواجيّة لدى المجتمع العربي المتعلم ؛ إذ التعليم بمقرّراته ومفرداته يكتب باللغة العربية الفصحى ، فيتعلم في المدرسة ذلك غالبًا ، ثم يخرج فيتلقّفه الإعلام ؛ ليقرأ ويسمع إلى لغة بعيدة عمّا تعلّمه ، وهذا بلا شك يعزز انفصام الشخصية اللغوية العربية ؛ لأنه يقوي مبدأ الازدواجيّة السلبي .

آثار التعليم باللغات الأجنبية :

إنني في هذا المحيط سأقف عند أبرز آثاره ، وهي :

١– الصراع اللغوي :

يعدّ هذا الأثر من أبرز آثار التعليم باللغات الأجنبية ، وقد يكون هو الأساس الذي تنتج عنه الآثار الأخرى ، فمن خلال الصراع اللغوي تتسرب الآثار الأخرى إلى المتكلمين بالعربية ، فإذا حدث الصراع كان مطيّة لتمثّل اللغة الأجنبية وإقصاء العربية عن واقع الحياة الحيوي .

إن التعليم باللغات الأجنبية يحدث صراعًا لغويًّا واضحًا ، وذلك من خلال الآثار النفسية والعلمية المترتبة عنه ؛ فعلى صعيد الأثر النفسي يتوغل في نفوس المتعلمين لأحد التخصصات العلمية عجز اللغة العربية عن مجاراة التطور العلمي والتقني الذي تشهده الساحة المعاصرة ، وبالتالي يبدءون في

انتقاص العربية ، فتبدأ صلتهم بالتراث العربي في الانفصال شيئًا فشيئًا حتى تصل إلى حدّ الانقطاع ، وهذا ما يلمس لدى كثير من النشء ؛ علمًا بأن العربية أثبتت قدرتها على مسايرة التطور في العصور المتقدمة والمتأخرة .

وأما على صعيد الأثر العلمي فإن الاستمرار في هذا المسار يزيد من التبعية لأصحاب التقدم ، ونستمر نأكل كلّ ما يلفظ ، حتى نصبح على هامش الطريق ؛ حيث نبقى في مؤخرة الركب في جانب التطور ؛ إذ نكون متلقين لا مصدرين ، ننتظر ما يصلون إليه ثم نقتفي أثرهم ، فلا نسمح لعقولنا وأفكارنا في أن تنطلق لتسبح في العالم وفضائه مفكرة ومخترعة ومبدعة . وهذا واقعنا يشهد على هذا ، بينما هناك دول وأمم لم ترتم في أحضان اللغات الأخرى ، وأصبحت في مصافّ الدول المتقدمة (ماليزيا ، الصين ، كوريا) ؛ لأنها نظمت علاقتها وتعاملها في الإفادة مما توصل إليه الآخرون ؛ حيث تلقفوا التقدم العلمي عن طريق لغتهم الأصلية من خلال الترجمة ، فبدأت عقولهم تمارس التفكير العلمي حتى نهضت في مجالات كثيرة ، وهذا ما أكّدته التجربة السورية في تعليم الطب ، وكذا تجربة السباعي - المذكورة آنفًا – وغيرهما ؛ من أن اللغة العربية حين تستخدم في المجال العلمي لا تعدّ عائقًا أمام التقدم وإنما تساعد على الارتقاء في الجانب العلمي .

٣- ضعف الاعتزاز :

(إذا كان للإنسان قلب فإن للعربية قلبًا نابضًا وهو الاعتزاز)

عندما نتكلم عن موضوع ضعف الاعتزاز بالعربية لا بد أن نشير – ولو بصورة سريعة – إلى أن هذا العامل له أثر كبير في جانب الاستعداد النفسي تجاه العربية ؛ لأنه كلما قوي هذا الاعتزاز ؛ كان مؤثّرًا في فاعلية الاستعداد نحو العربية واحتذائها، والعكس صحيح .

والكل يدرك أن إضعاف الاعتزاز مرّ بخطوات عدة ، خطّط له أعداء الأمة ، وحمل لواءها بعض المتغربين ؛ كاتهام الإعراب بالصعوبة ، وأنه يقف عقبة في تشويش التفكير ، والحلّ اللجوء إلى التسكين . وكذلك محاولات تقعيد العاميات العربية ، وافتتاح أقسام للأدب الشعبي في بعض الجامعات العربية ، وهذه وإن لقيت رواجًا في فترة زمنية معينة إلا أنها لم تلق قبولاً مستمرًّا فماتت في مهدها . بالإضافة إلى الدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية . وأخيرًا خطوة تعليم اللغة الإنجليزية في المرحلة الابتدائية ، وأعتقد أن هذا سيكون له أثر سلبي في عقليّات المتعلمين ؛ لأن الأمر على حساب ساعات ومقررات اللغة العربية .

يضاف إلى ما سبق ما يرتبط بموضوع تعليم العلوم باللغات الأجنبية ، وما يترتب عليه من آثار واضحة في ضعف الاعتزاز باللغة العربية ؛ لأن عدم التعليم بها رسالة تؤدي مفهوم عدم قدرتها على

مواكبة العصر وتقدمه ، وهذا مما يعمق الانهزامية أمام اللغة الأجنبية ، ولذلك يشاع بأن اللغة العربية غير جديرة بحمل العلوم الحديثة ، وأنها عائق أمام تقدم الأمة العربية ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتعلم اللغة الأجنبية ، وغاب عن أذهانهم أن الأمم لا تتقدم إلا بلغتها ، والتاريخ القديم والحديث يشهدان على ذلك .

ويمكن التأكيد على أننا بحاجة ماسّة إلى تعزيز مبدأ الاعتزاز بالعربية لدى المتخصّصين في العلوم المختلفة ؛ حتى يحرصوا عليها ، ومن ثم يكونوا سفراء ووسطاء بين لغة تلك العلوم والعربية عن طريق نقل المعارف إلى الأمة العربية بوساطة الترجمة والتعريب ، وذلك من باب تنظيم العلاقة بين اللغتين .

والخطوات السابقة ترمي إلى هدف واحد هو إبعاد الأمة عن دينها الذي لا يتم إلا عن طريق القرآن الكريم المنطوق والمكتوب (باللغة العربية) ؛ وبالتالي فإن القرآن يقرأ بالعربية ، وأحد أركان العربية (النحو العربي) ، وأسّ النحو (الإعراب) ؛ لذا وجهت السهام إلى (الإعراب) ؛ حتى أصبح عقبة كئودًا أمام المتكلمين .

٤- تلاشي الهوية :

تواجه الأمة الإسلامية والعربية خطورة في عصر العولمة تهدد جميع أركان الهوية : (الدين ، اللغة ، الثقافة ، الجوانب الاجتماعية ...) . وهذه الخطورة بعواملها المختلفة المتعددة قد تكون مفروضة لا خيار لنا فيها ، وبعضها قد تكون بأيدينا ، كما هو الحاصل في التعليم باللغة الأجنبية ؛ إذ هو أحد الأبواب التي تؤثر في الهوية ؛ فعن طريقه تتسرب إلى عقلية العربي الجوانب الثقافية والاجتماعية وغيرهما الأجنبية ؛ من خلال العناية بمحتوى اللغة الأجنبية – وبالذات في ظل الانهزامية التي يعيشها كثير من أفراد الأمة ؛ بسبب عوامل كثيرة ، منها : النظرة العالية إلى الثقافية الأجنبية في مقابل النظرة الدونية للعربية وتراثها بل وأهلها — فتظهر بوادر التقمص بالشخصية الأجنبية (لغة وسلوكًا ومظهرًا) ؛ كتضمين كلامه كلمات من اللغة الأجنبية على سبيل التعالي ولفت الأنظار ، على الرغم من أن الموقف اللغوي يتطلب لغة عربية ، وربّما كان المخاطب — أحيانًا – يجهل أبجديات اللغة الأجنبية .

إن التأثّر بالأجنبي في عصر العولمة ليس محصورًا في التعليم باللغات الأجنبية ؛ بسبب تعدد قنوات الاطلاع على الثقافة الأجنبية ومجتمعه التي أثّرت في الأفراد حتى وإن لم يكن يعرف اللغة ، فنجده يسمع إلى الأغنيات الأجنبية وهو لا يعرفها ، ويتّبع سلوكيات ومظاهر أجنبية من باب التقليد الناجم عن الاطلاع على وسائل الإعلام المختلفة ، وهذا لا يعني إغفال أثر تعليم العلوم باللغات الأجنبية في

تلاشي الهوية ؛ إذ ينبغي إعداد هؤلاء إعدادًا متوازنًا في تعاملهم مع اللغات الأخرى ؛ بحيث يحملون رسالة تكون متماشية مع الهوية العربية ، وبالتالي سيكون لهم أثر في الأفراد الذين يعملون في مجال عملهم .

٤– هجرة العقول :

إن هجرة العقول العربية عامة من القضايا العصرية التي أحدثت قلقًا في الساحة الفكرية والثقافية والعلمية ؛ إذ نجد المبرّزين يلجئون إلى الانتقال مهاجرين إلى الدول الأجنبية ؛ لاحتضانهم وفتح فرص الإبداع والإنتاج لهم . وهذا له انعكاس على الأمة العربية وتأخرها ؛ لأنها تخسر أفرادًا قد يملكون جوانب التغيير ومسالك التطوير ، وهناك إحصاءات خطيرة في هذا المجال ، بل إن بعض مراكز البحوث وكذا الجامعات تولاها أولئك المهاجرون وأصبحوا جزءًا من ذلك المجتمع الذي انتقلوا إليه .

وأما الهجرة المرتبطة بموضوع الدراسة (التعليم باللغات الأجنبية) فلا تقارن بالهجرة السابقة ، ولكن لها أثرها في المجالات العلمية ؛ فتعلّمه باللغة الأجنبية يؤدي إلى انقطاعه عن عالمه العربي ؛ لأن الأجنبية سيطرت على لب فكره وروحه تحدثًا وكتابة وقراءة ، فأثرت في مستوى إتقانه لمهارات اللغة العربية ؛ فأصبح من خلالها من أصحاب الهجرة .

وينبغي أن نشير إلى أن التعلم باللغات الأجنبية لم يقف ولن يقف عند حدّ معيّن ؛ لأنه مطية للهجرة من عدة جوانب ، منها : أن الحديث بها سيستمر بين المتخصصين أنفسهم ، وبينهم وبين أصحاب التخصّصات الأخرى في كلامهم العادي ، وكذا الكتابة بها في الدراسات العلمية ، وكتابة المذكّرات اليوميّة ، بالإضافة إلى المشاركة بها في الندوات ، والمؤتمرات ، والاجتماعات ... .

وما سبق أدى أن تنشر إبداعات العقلية العربية في دول أجنبية ، بل نجد منهم من يفتخر بأن أحد أبحاثه تبنته مجلة أجنبية ، وبالتالي تستفيد تلك الدول الأجنبية من الإبداع العربي ، ولكن لو كان على العكس من ذلك لأسهم في تغذية العقل العربي وتطوره ، يقول د. زغلول النجار إن " المتخصصين الذين ينهمكون في التدريس والبحث والتأليف والنشر بلغات أجنبية ينعزلون تدريجيًّا عن مجتمعاتهم حتى يصبحوا غرباء بين أهليهم وعشائرهم – على غير قصد أو تخطيط منهم – مما يؤدي إلى تفكيك روابط المجتمعات الإنسانية وحجبها عن أصحاب الفكر والرأي حتى يتمّ تحلّلها " (١) .

أضف إلى ذلك أن هذا الأمر ؛ أي : تعلم كل تخصّص باللغة الأجنبية يحدث انفصالاً بين العلوم المختلفة ؛ لأن لكل تخصص لغته ومصطلحاته الخاصّة ، ولا شك في أن المزج بين العلوم بلغة مشتركة بين المتخصصين على اختلاف تخصصاتهم يؤدي إلى التقدم والتطور(١) ؛ ولذا نقول بأن العربية مدعاة إلى اللقاء المعرفي والفكري ، والأجنبية مدعاة إلى الهجرة والانعزال .

الخاتمة :

* النتائج :

من أبرز النتائج التي توصل إليها البحث ما يلي :

١- أن حالات الصراع اللغوي ثلاث ، هي : صراع بين لغة وأخرى أجنبية ، صراع بين لغة وأخرى داخل لغة واحدة (لهجات) ، صراع بين لغة مثالية وأخرى عامية في داخل لغة واحدة.

٢- أن من أهم العوامل المؤدية للصراع اللغوي العوامل الخارجية (العلمية ، العولمة) ، والعوامل الداخلية (تعليم اللغة الأجنبية والتعليم باللغات الأجنبية ، سوق العمل ، الإعلام) .

٣- العوامل الداخلية أشدّ تأثيرًا من الخارجية ؛ لأنها تغذي المواقف النفسية والجوانب الانهزامية .

٤- ضرورة التفريق بين التعليم باللغة الأجنبية وتعلّم اللغة الأجنبية ؛ لأن تعليم العلوم بها له آثار سلبية ، وتعلّمها مطلب لملاحقة التطور ومواكبة المستجدات في العصر الحديث ؛ لأن تقدم الأمة مرهون بلغتها الأمّ .

٥- أن تعليم اللغة الأجنبية في سن مبكرة يؤثّر سلبًا على تعلم اللغة العربية وثقافتها .

التوصيات :

من التوصيات التي يرى الباحث العمل بها ما يأتي :

١- وضع برامج متعدّدة في القنوات الإعلامية العربية تعنى باللغة العربية .

٢- التأليف بالعربية لأبنائها وفق المنهج التكاملي في جميع المراحل عامة والأوّليّة خاصة.

٣- إيجاد قنوات وعلاقات قوية ذات تأثير بين الجهات التي تعنى باللغة العربية (المجامع ، المراكز ، الجمعيات ...) والإعلام بشتى وسائله ؛ لإبراز أهمية هذه الجهات ودورها وأعمالها ونتائجها ، وتتبنى قراراتها وتوصياتها ... .

٤- الإفادة من الطرق الحديثة المتّبعة في تعليم اللغات الأجنبية وتطبيقها في تعليم اللغة العربية.

٥- إقامة حملة أوتخصيص أسبوع موحّد في أقطار العالم العربي يقوم على أساس العناية باللغة العربية ، وتوضيح أهميتها ومكانتها في النفوس ... .

٦ـ وضع إستراتيجية للتخلص من العوامل الداخلية تسعى إلى التوازن في التعامل مع اللغات الأجنبية .

٧- غرس ثقافة الاعتزاز باللغة العربية .

٨- تصدير المعتدلين في الطرح وتشجيعهم .

٩- نشر ثقافة صلاحية العربية للعلوم الحديثة .

١٠- تفعيل نقل العلوم إلى العربية (الترجمة).

١١- تشجيع الباحثين المتخصّصين على إعداد المؤلفات التعليمية في العلوم العلمية .

١٢- جعل التمكن من اللغة العربية أحد متطلبات الالتحاق في سوق العمل .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين .

د. إبراهيم بن علي الدبيان

الهوامش :

---

[1] – علم اللغة . علي عبدالواحد وافي . ط ٩ . القاهرة : دار نهضة مصر . د- ت . ص ص ٢٣٠- ٢٣٩ .

[2] – المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي . رمضان عبدالتواب . ط ٢.القاهرة : مكتبة الخانجي . ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م . ص ص ١٦٧ – ١٦٩ .

[3] – ينظر :

– علم اللغة . ص ص ٢٢٩- ٢٤٨.

– المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي . ص ص ١٦٥- ١٧٧ .

– في علم اللغة العام . عبدالصبور شاهين . ط ٤ . بيروت : مؤسسة الرسالة . ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م . ص ص ١٩٠- ٢٠٧ .

[4] – دراسة تحليلة لمحتوى مادة القراءة الطبية في كلية الطب . زيدان علي جاسم و جاسم علس جاسم . ندوة بناء المناهج (الأسس والمنطلقات) ١٩ – ٢٠ / ٣ / ١٤٢٤هـ. د–ط . ج ٢ . الرياض جامعة الملك سعود – كلية التربية. ١٤٢٥هـ . ص ١٣٣٠ .

[5] – في سبيل العربية . محمد هيثم الخياط . ط ١ . المنصورة : دار الوفاء . ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م . ص ٤٥ .

[6] – تجربتي في تعليم الطب باللغة العربية . زهير أحمد السباعي . ط ٢ . الدمام : نادي المنطقة الشرقية الأدبي . ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م . ص ٨٤ .

[7] - تجربتي في تعليم الطب باللغة العربية . ص ٨٥ .

[8] - دراسة تحليلة لمحتوى مادة القراءة الطبية في كلية الطب . ص ص ١٣٣١ ، ١٣٣٢.

[9] – مذاهب وطرائق في تعليم اللغات . جاك رتشاردز و ثيودور روجرز . ترجمة : محمود إسماعيل صيني وآخرين . د – ط . الرياض : عالم لكتب . ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م . ص ٩١ .

[10] - تجربتي في تعليم الطب باللغة العربية . ص ص ١٤–١٥ .

[11] - تجربتي في تعليم الطب باللغة العربية . ص ص ١٣- ١٤ .